



## المجلس الثاني

في مقام التلقي لأسباب الحجب عن الهدى

بين ظلمات الكفار وأمراض المنافقين



### ١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٣ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٤ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ٥﴾

### ٢ - البيان العام:

تَاهَتِ البشرية دهرًا طويلًا في ظلمات الجاهلية والضلال، وتخبّطت في غيِّها تخبّطًا شديدًا! وعانت من الويلات والشور ما جعل حياتها ضنكى، وتساقطت أجيالها قرونًا بظلماتها هلكى، ولا من يقدر لها شعلة نور! حتى إذا تجلّت رحمة الله على العالمين، تفتحت أبواب السماء بنور مبين! فنزل هذا القرآن ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ١﴾ فتلقى المؤمنون رحمة ربهم، واحتضنوا هُدهاء بأجنحة التقوى، فكانوا هم المفلحين. واستكبرت طائفتان من الناس: الكفار والمنافقون، أعرضوا عن سماع كلام الله، واستكبروا عن الخضوع لهُدهاء، فكانوا هم الخاسرين! وكما جعل الله لمسلِكِ التقوى أوصافًا، فقد جعل أيضًا لمسلِكِ الكفر والنفاق أوصافًا، كشفت حقيقة كلتا الطائفتين كفرًا ومنافقين، وبَيَّنَّتْ أمراضهما، تحذيرًا للمؤمنين من عدواها، وبيانًا لمنهج التعامل معهما، في سياق بناء الأمة المسلمة، وتركيب نسيجها. فالإنسان المواجه بهذا القرآن المدعو إلى هُدهاء، إما قابل له أو رادّ له، وإما متزدد في شأنه شاكّ في أمره، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فهذه أصناف ثلاثة:



فالصنف الأول هم الذين قِيلَوه وهم المؤمنون المتقون، وقد تقدم بيان مسلكهم

بالمجلس السابق.  
وأما الصنف الثاني: فهم الذين رُدُّوه وهم الكافرون. وقد حصر الله تعالى طبيعتهم في آيتين اثنتين، جامعتين لكل ظلمات الكفر وخباثته! وبين بذلك منهج التعامل مع هذه الطائفة خلال الدعوة إلى الله وبناء صرح الأمة أو تجديده. فقال لرسوله ﷺ ولكل داعية بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠١ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٢﴾ فهذا كشف دقيق لطبيعة الكفر، وبيان لحقيقة الكفار. إنه تعريف للكفر الخالص، وتشخيص لدائه الويل! فالرسول ﷺ مأمور بأداء البلاغ؛ ولذلك فهو يدعو كل الناس، فمن آمن فقد آمن، ومن كفر فلا يزال النبي - عليه الصلاة والسلام - يجتهد في عرض بَلَاغِهِ عليه بشتى أنواع البيان؛ عسى أن تنكشف الظلمة على من غلبته الشبهات والشهوات. وتلك هي وظيفة الرسل والأنبياء. فلربما استيقظت فطرة الإيمان في قلب أحد من هذه الطائفة، فيلتحق بمن سبقوه إلى الإيمان ويكون من المسلمين.

يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ أَنَّ حِثَالَةَ مِنَ الْبَشَرِ سَتَبْقَى عَلَى الشَّرِّ؛ لِأَنَّهَا آمَنَتْ بِالشَّيْطَانِ عَنْ وَعْيٍ، وَاتَّخَذَتْ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ! فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْكَافَرُ حَقًّا، قَدْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَحُجِبَ عَنْهُمْ الْهُدَى! فَأَخْبِرْ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ دَاعِيَةٍ إِلَى الْخَيْرِ بَعْدَهُ، أَلَّا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَذْهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ! إِنَّهُمْ لَنْ يَسْلَمُوا أَبَدًا! لَكِنَّهُ جَعَلَهُمْ - مِنْ حَيْثُ أَعْيَانُهُمْ - نَكْرَةً دَاخِلَ مَجْمُوعٍ؛ لِتَسْتَمِرَّ عِبَادَةُ اللَّهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَنَالُ فِيهَا الدَّعَاةُ مَا يَنَالُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْمُطَارَدَةِ وَالتَّكْيِيلِ؛ ابْتِلَاءً لَهُمْ وَلِأَعْدَائِهِمْ؛ لِيَسْعَدَ مِنْ سَعْدِ بَرَحِمَةِ اللَّهِ، وَيَشْقَى مِنْ شَقِيٍّ بَعْدَلِ اللَّهِ!

وبهذا التقرير تبين أن من عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ سَيَسْلَمُ مِنَ الْكَفَرِ، بَعْدَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، غَيْرَ دَاخِلٍ تَحْتَ حُكْمِ الْآيَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي حَقِّ «الَّذِينَ كَفَرُوا»، وَلَا هُوَ مَقْصُودٌ بِأَوْصَافِهِمَا؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فِي الْحَالِ فَهُوَ مُسْلِمٌ فِي الْمَالِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ الْمُخْتَوِّمُ عَلَى قَلْبِهِ فَهُوَ الْكَافِرُ حَالًا وَمَالًا! فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْكَفَرَةُ الْمُرْدَةُ! الَّذِينَ طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ سَمَاعِ نِدَاءِ الرَّحْمَنِ! وَالْقُرْآنُ أَرْشَدُنَا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نُعَيِّنَهُمْ تَعْيِينًا،



فليس ذلك من وظيفتنا ولا من مقدورنا. ولكن يكفيننا أن نُوقِن أنهم موجودون؛ لنعرف كيف نعبد ربَّنَا وندعو إليه، وكيف نحدِّد ديننا ونبني أمتنا، في عالم فيه هذه الزمرة الخبيثة، تحارب الخير وأهله وتكيد لهم كيِّدًا! وتلك حكمة من أغلى حِكَمِ هذه الآيات!

فالكفر صفة خبيثة، وصف الله بها الذين جحدوا الحقَّ وأنكروا الهدى، واستكبروا أن يكونوا عبادًا لله الذي خلقهم! فأصروا على جحودهم وقلوبهم للحقائق، إذ الكفر في اللغة: تغطية الشيء وتعميته. وهؤلاء غطُّوا وجه الحقِّ بباطلهم وجحدوه! وانتصبوا له أعداء مُضْطَفِّين في صفِّ إبليس عدو الله ربِّ العالمين! فهذا الضرب الشرير من الناس لا تنفعه نذارة نذير ولا بشارة بشير! واقتصر في الآية على ذكر النذارة دون البشارة؛ لأنها أبلغ في بيان قساوة القلوب التي لم يمسهَا خوف من الله الواحد القهار!

إن هؤلاء قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، بمعنى أنه ﷻ طبع عليها وغلَّقها تغليقًا؛ فهم لذلك لا يفقهون ولا يسمعون! فأنى يبصرون إذن طريق الهدى؟ ولذلك قال: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ بمعنى أنه صارت على أبصارهم غشاوة، أي حجابٌ وغطاءٌ من الضلال، فلا يرون من نور الهدى بصيصًا! وقَدَّم في الآية خَتَمَ القلب على ختم السمع، وجعل غشاوة البصر آخرًا؛ لأن داء الكفر يستولي على القلب أولاً، فإذا وطَّن له أكنافه استكبر صاحبه وطفى؛ فجازاه الله بالختم عليه! ومنعه بعد ذلك من سماع الحق، ثم جعل عاقبته العمى، فلا يهتدي في حياته سبيلًا!

فبكفر هؤلاء واستكبارهم على الله ورسوله عاملهم الحق ﷻ بعدله! وهذا نظير قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكْفَرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] وأَحْكَمَهُ بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطففين: ١٤]. أي أطبق على قلوبهم وهيمن على أهوائهم ما كانوا يكسبون من الذنوب والموبقات، وما غرقوا فيه من العشق الشيطاني للشهوات والمنكرات؛ بما جعلهم لا يقبلون عن كفرهم بالله وتمؤدِّهم عليه بديلاً! فلذلك غضب الله عليهم وختم على جميع منافذ النور من جوارحهم! وحكم عليهم بعذاب عظيم يوم القيامة والعياذ بالله!



فهذا صنف من البشر موجود يعيش في الأرض، نَبَّة إلى خطورته القرآن: صنف  
استمرَّ الظلام وتغذى بالفساد، يتأذى بالنور ويخاف سماع خطابه! ويرفض أن تتسع  
دائرة الهدى؛ ولذلك انتصب لها ولأهلها عدوًّا! ولم يستطيعوا  
وأما الصنف الثالث: فهم الذين ترددوا إزاء الإيمان بهذا الكتاب، ولم يستطيعوا  
حسم موقفهم منه، حتى آل أمرهم إلى اختيار شيطاني خطير! وهو أن يكونوا مع  
الطرفين، ويجمعوا بين التقيضين في وقت واحد! والدافع إلى ذلك هو أنهم  
لم يصدقوا في الواقع من الوحي شيئاً، بل استكبروا على الله ورسوله استكبار الصنف  
الأول سواء! وودَّوا لو استطاعوا التصريح بكفرهم وجحودهم، لكن ظروف الهجرة  
إلى المدينة، واجتماع كلمة أهلها على نصرة دين الله ورسوله ﷺ، ألجم أفواههم  
خوفاً على مصالحهم، وقد كانوا من أهل يثرب، بل كان بعضهم من سادة أهلها  
ومن الشيوخ المقدمين في قبيلتيها: الأوس والخزرج! ففضلوا المداينة والتظاهر  
بالإسلام إلى حين؛ طمعاً منهم في أن قصة هذا الدين ستنتهي بهجوم عسكري من  
العدو المترص به، أو بموت رسوله الكريم! كذلك غرَّهم الشيطان! ولذلك سُمَّاهم  
الله تعالى: منافقين! وفضحهم القرآن في غير ما سورة وآية، بل أنزل في شأنهم سورة  
كاملة، وسُمَّاهم باسمهم: «المنافقون»! وفُصِّل في أوصافهم تفصيلاً لِمَا سيأتي بيانه  
من الفقه والحكمة إن شاء الله.

والمنافق في اللغة: هو الذي يمشي تحت الأنفاق أي داخل السرايب المظلمة التي  
تحت الأرض، ومن ثمَّ كانت العرب تُسمِّي الضبَّ منافقاً؛ لأنه يجعل لجره عدة  
أبواب تمويها على مطارده، فإذا دخل من باب لم يدر صياده بعد ذلك من أيها  
يخرج! ولذلك جعل الله هذه الصفة اسماً لمن يُظهر الإيمان ويبطن الكفر بإطلاق.  
ولفظ «المنافق» ومشتقاته وإن لم يرد في سورة البقرة تصريحاً، فإنه صار بعد ذلك هو  
المصطلح الشرعي الثابت لهذه الطائفة الخبيثة. لأن سورة البقرة هي من أول ما نزل  
بالمدينة حيث نشأ المنافق، فشرحت المفهوم أولاً، ثم نزل القرآن بعدها بالمصطلح تسمية  
وضبطاً لهذا الصنف من الناس. ومن هنا فقد اجتفلت سورة البقرة بتشريح نفسي دقيق  
لأحوال المنافقين وطبائعهم؛ بما جعلهم مفضوحين مكشوفين! والكفر الصريح إنما يكون بدار الكفر، أو بالبيعة التي يظهر فيها الباطل على الحق،



ويغلب فيها الشرُّ على الخير! وأما النفاق - وهو الكفر العقدي الخفي - فإنما يكون عادة بالبيئة التي يظهر فيها الحقُّ على الباطل ظهورًا كليًا. كما كان الحال في العهد النبوي والعهد الراشدي، وما لحقهما من عهود الخلافة الإسلامية عبر التاريخ. كما يكون أيضًا بالبيئة التي يظهر فيها الحق على الباطل ظهورًا جزئيًا، كما هو حال بعض الأقطار الإسلامية بزماننا هذا! ولذلك فإن النفاق لم يكن بمكة قبل الفتح، كما أن الكفر الصريح لم يكن بالمدينة بعد الهجرة.

ولخطورة أهل هذا الصنف على المجتمع الإسلامي، وتهديدهم المستمر لكيانه؛ فُصل القرآن في طبيعتهم وصفاتهم؛ حتى لا يغترَّ بهم المؤمنون وهم يبنون صرح الأمة أو يجددون عمرانها، بل حتى يحذروهم أشد مما يحذرون الكفار المجاهرين بالكفر! ويحتاطوا لدينهم ودعوتهم منهم أشد احتياطًا! ولذلك جعلهم في جبهة العداء الصريح، فقال في سورة «المنافقون»: ﴿هُرَّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ فَنَلَّكُمُ اللَّهُ أَفَى يُؤَفِّكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]. وقوله: ﴿هُرَّ الْعَدُوِّ﴾ معناه العدو الأخطر والأكبر!

ومن ثمَّ بدأ في سورة البقرة ههنا يكشف عن طبيعتهم النفسية بتفصيل، ويشخص أحوالهم المرضية بدقة، ويحلل شخصيتهم وسلوكهم، بصورة تجعل زمرة المنافقين معروفة لدى المؤمنين مفضوحة! جاء ذلك بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ٣.

فاتقاء لوصفهم بصفة «الكفر»، ولما لها من تبعات سيئة على مصالحهم، رفعوا شعار الإيمان ظاهرًا فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾، لكن الله - جلَّ وعلا - فضحهم ونفى عنهم هذه الدعوى وكذبهم بها! فقال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وعبر بالجملة الاسمية المنفية؛ للدلالة على ثبات النفي ومطلق التكذيب! في مقابل تصريحهم المراوغ: ﴿ءَامَنَّا﴾، فإيمانهم بالله مشوب بالشرك الأكبر، مختلط بظلمه وظلماته! وأما الآخرة فواقع أمرهم أنهم لها منكرون! فهم ما يزالون على أصلهم من الجاهلية العمياء وبسبب بقائهم على العقيدة الجاهلية، لم تزل تصوراتهم عن الربوبية فاسدة، حيث كانوا يظنون بجهلهم أن الله ﷻ لا يعلم سرائرهم ولا نجواهم،



وأنه تعالى لا يستطيع أن يطلع على ما يسرون؛ إلا إذا صرّحوا بذلك لرسوله، أو لمن يوصل الخبر إليه! فانظر إلى جهلهم بالله وسذاجتهم، وإلى سفه عقولهم! ألا سبحان الله عما يصفون!

وبناء على هذا الاعتقاد الفاسد جعلوا يخادعون الله والذين آمنوا، مطمئنين إلى فلاحهم ونجاحهم في التمويه والتحايل، إلى حين تواتيهم الفرصة للغدر والانقضاض على المؤمنين! فكشف الله ﷻ حقيقتهم للمؤمنين، مبيناً أن وبال هذه المخادعة أثل عليهم بالخسران المبين! فمن خادع الله إنما هو يخادع نفسه ويحكم عليها بالهلاك! وكيف يُخدع الله تعالى وهو الذي: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ألا ما أجهلهم بالله خالقهم وخالق الناس أجمعين!

وقد قرأ نافع بصيغة فعل المشاركة في قوله تعالى: « يخادعون » في الجملتين: الأولى والثانية؛ للدلالة على وحدة الفعل فيهما، وأن حقيقة مخادعة الله إنما هي عين مخادعة النفس؛ لأن الله جلت عظمته لا يُخدع أبداً! وقرأ عاصم بفعل المشاركة في الأولى، وبالفعل المجرد منها في الثانية، فقرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ للدلالة على مآل مخادعة الله ونتيجتها، أي أن هذه المخادعة الوهمية تنقلب على صاحبها في النهاية! وكلتا الصيغتين مفضية إلى نفس النتيجة، وهو الخسران المبين. ولكن المنافقين لا يشعرون بذلك؛ لجهلهم بالله وبمقامه العظيم. فهذه أول صفة النفاق: الجهل بحقيقة الربوبية وشؤونها العظمى!

ثم شرع تعالى في بيان الصفة الثانية، وهي صفة مَرَضِيَّة نفسانية، تحلُّ شخصية المنافق وتفضحها، وتفسر سلوكه المخادع، قال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فوصف ما بقلوبهم من النفاق بالمرض؛ لأن قلب المنافق يُعاني من ازدواج الشخصية وانفصامها، ومن علل الاضطراب والتذبذب والجن، وعدم الاستقرار على موقف واضح صريح! وهذه شخصية مهزوزة لا تكاد تستقر على حال، تعاني من الوسوسة والخوف والشكوك، إلى درجة مرضية قاتلة! وبهذا وصفهم الله تعالى في سورة «المنافقون» قال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وكذلك في سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ٥



يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوْلَوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]  
 ويأصرارهم على هذه الوضعية المرضية، وعدم إقبالهم على دواء القرآن الكريم،  
 مستشفين ومستغفرين، طائعين لله ورسوله بصدق؛ عاقبهم الله ﷻ بزيادة مرضهم،  
 وأركسهم في اضطرابهم، فهم يعيشون بين المؤمنين في ضنك شديد وقلق مديد!  
 ثم جعل تعالى مصيرهم إلى عذاب أليم هو أشد وأدهى؛ لفظاعته وخلوده! وربط  
 هذا الجزاء الرهيب بتكذيبهم لرسول الله ﷺ وبكذبهم على الله وعلى الذين آمنوا.  
 فبذلك وردت القراءتان عن نافع وعاصم، فقرأ الأول: (بِمَا كَانُوا يُكْذِبُونَ) وقرأ  
 الثاني: (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). وبذلك جمع المنافقون بين الشرين! فاستحقوا عقاب  
 الدنيا مرضاً نفسياً مدمراً، وعقاب الآخرة عذاباً أليماً، والعياذ بالله!  
 ولطبيعة المنافق وشخصيته أوصاف أخرى نجعلها للمجلس اللاحق بحول الله.

### ٣ - الهدى المنهاجي:

وأما الهدى الذي تكشف عنه هذه الآيات، الواردة في التعريف بالصنفين  
 الأخيرين من البشرية: الكفار والمنافقين؛ فنجمله في الرسائل الخمس التالية:  
 الرسالة الأولى: في أن الكفر المحض شرٌّ محض! وأن قلب الكافر مغلق على  
 ظلمات بعضها فوق بعض! والشر المحض هو خاصية إبليس - نعوذ بالله منه - وهو  
 قد توعد البشرية بالإضلال! فلا بد أن يكون أولياؤه على نهجه، من التعرض للخير  
 بالحرب والانتصاب له بالأذى! والداعية مأمور ببلاغ الدعوة إلى كل الناس؛ لأن  
 الكفار ليسوا سواء، فمنهم من إذا بلغته الدعوة لَانَ قلبه لله فأسلم، ومنهم من تمحَّض  
 للكفر عن علم تام، وبائع الشيطان على الضلال والإضلال! فلا بد للداعية من  
 استحضار هذه الحقيقة في طريقه، تماماً كما يستحضر خطر الشيطان في حياته؛  
 فيتخذ منه حذره واحتياطه!

والعالم اليوم صار قريةً واحدةً، متقارب الزمان والمكان، ومن ثمَّ ازداد احتكاك الخير  
 بالشرِّ، وكما أن الخير صار يطمع في الانتشار في كل مكان، فكذلك الشر هو للخير  
 بالمرصاد في كل مكان! والداعية الذي يعمل في نقطة صغيرة من الأرض، ويظن أنه  
 ودعوته بمنأى عن أذى الكفار؛ هو جاهل بطبيعة الزمان وبطبيعة الكفار! بل لا بد له



من مراعاة ذلك كله. في الدعوة إلى الخير والمجاهدة بالقرآن، فيسدد الأعمال ويحكمها، ويوازن الخطوات ويضبطها، ويحكم على الحال بمظنون المآل. عسى أن يسهم في تجديد الدين بحكمة، ويسلك إلى ربّه في غير فتنة.

الرسالة الثانية: في أن على الداعية أن يجتهد في تمييز طوائف الكفار، ومراعاة مِلَلِهِمْ ومذاهبهم وأهوائهم، عسى أن يصل إلى تمييز من يغلب على الظن قبولهم للحق واستجابتهم للهدى متى بُيِّنَ لهم، ومن لا قابلية لهم لذلك، ممن طبع الله على قلوبهم! هذا على الإجمال، إذ الداعية - بطبيعته البشرية - لا قدرة له على التعيين والتدقيق فيمن يهتدي أو لا يهتدي، وما كُلف بهذا بل هو أمر بيد الله. وإنما المقصود قراءة العلامات العامة والإشارات الربانية الواردة في كتاب الله، حتى لا يشغل باله ويهدر وقته بمجادلة من ختم الله على قلبه! فإنما هي دعوة يبلغها تمام بلاغها لكافة الناس، ثم يفرغ لهؤلاء المحرومين من وصول شعاع الهدى، الذين إذا عرفوه أقبلوا عليه باكين مستغفرين! قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] أي ذلك حالهم بعد إسلامهم، فإنهم إذا عرفوا الحق أخذوه بقوة! وكثير من الشعوب غير المسلمة اليوم ممنوعة بقوة السلطان والإعلام من تلقي نور الهدى!

الرسالة الثالثة: في أن النفاق ظاهرة مستمرة في البيئة الإسلامية إلى يوم القيامة! ولذلك قال تعالى عند بدء توصيفه: ﴿وَمِنَ الْفَاسِقِينَ...﴾ الناس بما للعبارة من عموم وشمول، هكذا مجردة عن قيود الزمان والمكان، فلا بد أن تكون طائفة منهم مهما قلت على نفاق! وهي لا تكون بطبيعتها إلا داخل البيئة الإسلامية. سنة الله في خلقه. وقد تضعف هذه الطائفة وتضمهر، وقد تقوى وتتجبر؛ وذلك على حسب قوة المجتمع الإسلامي وضعفه.

وقد فضل الحق تعالى في أوصافهم تفصيلاً - كما سبق، وكما سيأتي بالمجلس القادم بحول الله - وفي هذا إشارة إلى أن الخطر الأكبر الذي يهدد بناء الأمة، ويعرقل مسيرة تجديدها، إنما هو هذه الطائفة الشريرة: المنافقون! إذ الكفر الصريح عدو واضح، تُعرف مواقفه وخطواته. أما المنافقون فهم شياطين يخربون جسم الأمة من الداخل، ويشغلون عملاء للكفر الصريح، ينفذون برامجه وخططه! ويصرون مع



ذلك على الاحتفاظ ببطاقة «مسلم» تقيّة ومخادعة! ومن ثم كان لا بد للدعاة والمصلحين اليوم من إدخال هذا في الاعتبار؛ لضبط موازين السير في كل خطوة وكلمة. الرسالة الرابعة: في أن النفاق مَرَضٌ مُعَدٍ، ينتقل إلى الإنسان جزءاً فجزءاً، حتى يستولي عليه كلياً! ولذلك وجب على المسلم الاحتياط الشديد منه! وذلك باتقاء الوقوع في خصاله والتلوث بأخلاقه الفاسدة. فإن المرء لا يزال يتلبّس بأحوال المنافقين، ويتخلّق بأخلاقهم الجزئية، الواحدة تلو الأخرى؛ حتى يصير منافقاً صريحاً! ذلك أن العلماء ميّزوا بين نوعين من النفاق: أحدهما عقدي، وهو النفاق المحض الذي يجاور الكفر. والآخر: نفاق عملي، وهو يكون بتخلّق المسلم الفاسق بأخلاق المنافقين، ولو لم يكن على مذهبهم في الاعتقاد، بل هو مع سواد المسلمين. إلا أنه كلما تبادى في نفاقه العملي خشي عليه أن يختم الله على قلبه بنفاق عقدي؛ فيكون من الهالكين! ومن ثم حذّر النبي ﷺ أشدّ التحذير من أخلاق المنافقين وخصالهم، فقال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً! ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اتّمين خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» (١).

الرسالة الخامسة: في أن إصرار العبد على الذنوب وتسويق توبته خطر عظيم! فلربما أحاطت به خطيئته؛ فطبع الله على قلبه طبع كُفْرٍ أو طبع نفاق، والعياذ بالله! ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «تَغْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصُّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَالْآخَرُ أَسْوَدٌ مُزْبَادًا، كَالْكُورِ مُجْحَيًا، لَا يَعْرِفُ مَغْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا! إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهَا» (٢) فالمسارعة إلى التوبة هي الدواء الناجع للقلوب، وهي صمام الأمان من الارتكاس في حمأة الكفر والنفاق، تخلّقاً أو تحقّقاً! وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم. وقوله: أَسْوَدٌ مُزْبَادًا: يعني فيه لمعان من شدة السواد والكُور: الإناء كالإبريق. وتكونه مُجْحَيًا: يعني منكوشاً، بحيث لا يمسك ما فيه.



لُكِّثَ في قلبه نكتة سوداء! فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبه! وإن عاد زيد فيها؛ حتى تملو على قلبه! وهو الزَّانُ الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطغف: ١٤] <sup>(١)</sup>.

#### ٤ - مسلك التخلق:

وقضية هذا المسلك ههنا تتلخص في خُلُقَيْنِ اثنين:

الخلق الأول: اليقظة! وذلك باكتساب وعي دقيق بطبيعة الكفر والنفاق، والتفقه في أحوالهما مُنْزَلَةً على هذا العصر. ويتم التوصل إلى ذلك بتدبر الآيات التي وردت في هذين الصنفين من الناس من جهة، وبالمقارنة بينها وبين أحوال العالم اليوم من جهة أخرى، إزاء الصراع الدائر بين الحق والباطل. فإذا كان الداعية صافي الروح رأى الحقيقة واضحة؛ فاتخذ جذرةً وتوكل على الله!

الخلق الثاني: ضرورة اكتساب سلامة القلب، وحفظه من أمراض النفاق وخصاله الجريئة والكلية، سواء في ذلك النفاق العقدي أو العملي، وكذلك الكفر بنوعيه العقدي والعملي. والطريق إلى ذلك يكون بثلاثة أمور:

الأول: تقوية جهاز المناعة الإيماني، وذلك بترقية القلب في مدارج التقوى؛ إذ التخلق بالتقوى خير حافظ للمؤمن من مزالق الشيطان. وقد فصلنا هذا الأمر بالمجلس الأول.

والثاني: المعالجة السريعة لطوارئ الذنوب، بالتوبة السريعة، والمبادرة إلى فعل عمل صالح قبل انقضاء اليوم الذي وقعت فيه الخطيئة. وقد جمع الرسول ﷺ خلاصة هذا المسلك كله في قوله الجامع: «أتق الله حيثما كنت! وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالفني الناس بخُلُقِي حسنًا» <sup>(٢)</sup>.

وأما الثالث: فهو التزام الدعاء بالحفظ من الذنوب والنجاة من الضلال. وقد كان أكثر دعاء النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول: ( « يَا مُقَلِّبُ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى

(١) أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (١٦٧٠).

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم والبيهقي عن أبي ذر مرفوعاً. وقال الترمذي حسن صحيح.

وقد قيل له  
لن شاء أقام ومن

(١) رواه الترمذي عن أم



دينك! « فقل له في ذلك؟ قال: « إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ! » (١).



(١) رواه الترمذي عن أم سلمة مرفوعاً، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.